مجلة كلية
الدعوة الإسلامية

العدد
السابع عشر
2000

مجلة إسلامية - ثقافية - جامعة - محكمة - تصدر سنويا

1430 من ميلاد الرسول ﷺ الموافق 2000 افرنجي

كتاب جديد

النفيس

من معاجم العرب الكبرى

الدكتور خليفة محمد التليسي

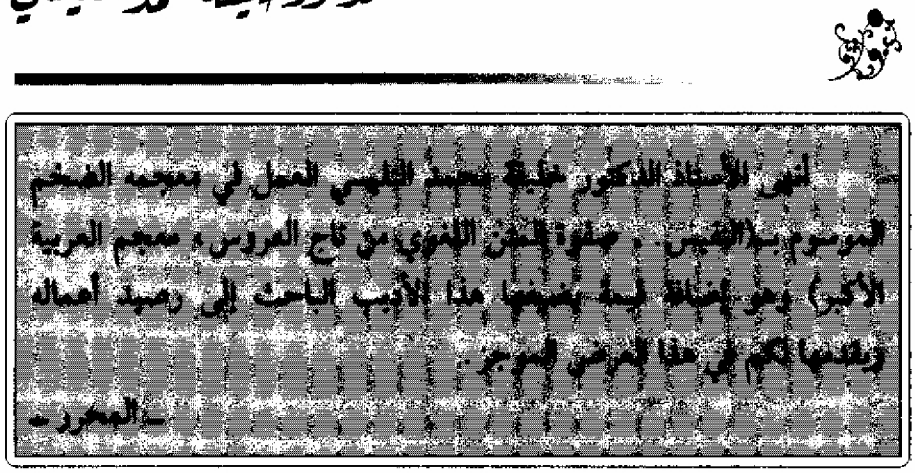

هذا العمل يصدق قارئه، منذ أن يضع بصره، على عنوان غلافه، فهو (النفيس. . . صفوة المتن اللغوي من تاج العروس، معجم العربية الأكبر) وقد كان تاج العروس، قاعدتي الأولى التي انطلق منها هذا العمل، مع رجوع إلى

المعاجم المبذولة التي اعتمد عليها التاج، والمعروف أن تاج العروس، هو أكبر معاجم اللغة العربية وأوسعها. وقد اعتمد هو الآخر في هذه الموسوعية على كلّ المعاجم التي سبقته. مع تعويل خَفي، بصفة خاصة، على (لسان العرب) ملفوف بالاستدراك وشرح القاموس، وهو أمر لا يمكن أن يخطئه الدارس المدقّق، العارف بتاريخ المعاجم، وتأثير السابق في اللاحق منها. ولكن التّاج تميّز عليها جميعها، بهذه الموسوعية التي تجاوز بها لسان العرب، وجمع بها خير ما في المعاجم. على أن المتن اللغوي في التاج، لا يكاد يزيد على غيره، مما تقدّمه من معاجم إلا ببعض الاستدراكات التي انصرف أغلبها إلى الكلمات المهملة، أو الكلمات المماتة، فلا يزيد إثباتها شيئاً إلى المتن سوى التوثيق لها، فأغلب الكلمات المغفلة هي الكلمات المماتة التي هجرتها الأمة وأماتها عدم الاستعمال.

والمستفيد من المعاجم العربية، والمتتبّع لتطوّرها يلمس الطابع الشخصي، المخلوع على كلّ عمل من هذه الأعمال، بحيث تلمس منهج صاحبها في تأليفها، وفي نظرته إلى اللغة، فـ(لسان العرب) يدل دلالة واضحة على منهج صاحبه في التعامل مع المتن اللغوي، وصِلاته بمختلف فروع المعرفة، وكذلك (تاج العروس) واضح في الدلالة على شخصية صاحبه ومنهجه

في التعامل مع المتن اللغوي. وبين هذه المناهج المتعدّدة استوقفتني ثلاثة مناهج عند استعراضي لتطور المنهجية المعجمية القديمة.

وأولها: منهج الجوهري في الصّحاح. وأتصوّر أن أستاذية الجوهري اللغوية، ومرجعيته الكبرى، تتمثّل في أنّه عمد إلى الرصيد اللغوي، فأهمل المهمل والممات، وأثبت الصّحاح الصّحاح أو هكذا كان اجتهاده. وقد سار كثيرون بعده على هذا النهجو وصارت كلمة (أهمله الجوهري) من الكلمات المرجعية في المعاجم التي جاءت بعده، وقد عدّدوا مزايا الصّحاح فقالوا إنها تبدو في التماسه الصحيح الذي لا خلاف فيه، وسهولة تناوله ومأخذه، والوصول إلى الكلمة المقصودة دون كبير عناء، واختصاره في الشرح والتفسير، وتركه الفضول الذي لا غِناء فيه وجمال أسلوبه في الشرح وذكره شواهد الشعر الرفيع وكلام العرب غير المصنوع، وتجاوزه ذكر من ينقل عنهم غالباً، رغبة في الإيجاز، وعنايته بمسائل النحو والصرف، وإشارته إلى الضعيف والمبتكر، والمتروك والرّديء، والمذموم من اللغات، وإلى العامي والمولّد والمعرّب والإتباع والازدواج والمشترك والفوائد والنوادر، والألفاظ التي لم تأت في الشعر الجاهلي وذكرها الإسلام، وإلى الأضداد. (مقدمة الصّحاح).

لقد أوردتُ هذه الفقرة بكاملها لأؤكد عناصر المنهج الذي اتبعه القدامى في تأليف المعاجم.

أما **المنهج الثاني**: فهو منهج الزمخشري، في أساس البلاغة. فعلى كثرة ما قرأت من دراسات حول أساس البلاغة، كعمل منفرد أو في إطار جميع أعمال الزمخشري المتميزة بالاستقلالية والفتوح الجديدة الرائدة، لم أر أحدهم أشار إلى هذا المنهج، كما استخلصته من تعاملي مع هذا العمل الجليل، ومؤداه أن أساس البلاغة هو معجم شخصي Personal، وأعني بالتحديد أن الزمخشري ألّفه لنفسه، حتّى إذا استوثق من فائدته، ألقاه للآخرين عملاً متميزاً بالفرادة والطابع الشخصي الذاتي. وريادة الزمخشري، لا تتمثّل في التزامه الترتيب الألفبائي، فقد أثبت الدّارسون، أن هناك من سبقه في التأسيس لهذا المنهج، ولكن ريادته في رأيي في هذا الطابع الشخصي الذي أضفاه على هذا القاموس،

حتى في شواهده التي عرفت في المعاجم تحت عنوان (سجعات الأساس) وكانت الشواهد نفسها من تأليفه. وهي لا تخلو من تكلّف وتصنّع. وقد اعتمد فيه من الألفاظ ما كان يراه أساسياً للبلاغة والإبلاغ. وهذا يظهر بشكل واضح في عدم تقصّيه للكلمات التي يعتبر معرفتها بديهية لديه، ولا يحتاج إلى أن يتعمّقها أو إلى ملاحظة تذكره بها.

وقد فطن الدّارسون إلى خصائص هذا العمل، ولكنّهم لم يفطنوا إلى هذه الذاتية التي تحكّمت في تأليفه، وجعلته معجماً للعبارة البليغة كما يتصوّرها الزمخشري، في ذلك الوقت، وليس معجماً للألفاظ، بدليل أن صاحبه لم يعن بإيراد جميع ألفاظ اللغة، كما أنّه لم يقف عند بعضها، وقوف المستوفي، وإنما اكتفى باللمسات العابرة كأنما يقيد بذلك شيئاً بديهياً لا يستوجب الاستيفاء والاستقصاء، واستقلّ الزمخشري وحده، حتى اليوم، بهذا المنهج.

وكان تطوّر المعجمية سيغني كثيراً لو استفاد الذين جاءوا بعده من درس هذا الرائد العظيم. وما تزال الحاجة قائمة ومطلوبة لمثل هذا المنهج الذي من شأنه أن يُنعِش اللغة، ويمدّها بنبض إبداعي متنوّع مختلف باختلاف العصور وحاجاتها المتطوّرة.

أمّا **المنهج الثالث** فهو منهج الرّاغب الأصبهاني في كتابه (المفردات). وقد كان صاحب التاج يُبدي إعجاباً كبيراً بهذا الكتاب، وأفاد من الكثير من تفسيراته لألفاظ القرآن الكريم. وكتاب الرّاغب هذا كتاب فريد شاع ذكره بين اللغويّين والمفسّرين المعنيين بغريب القرآن واستكناه أسرار اللفظة العربية، وبخاصة في عمقها الديني التصوّفي الأخلاقي. إنه من التراث الحيّ، والتراث الحيّ في تقديرنا هو الذي يحمل طابع المعاصرة لكل عصر. فهو ثمرة عقل متفتح يجد فيه كل عصر ما يريد الوصول إليه من أعماق ألفاظ القرآن. إنه معجم لألفاظ القرآن، لا همّ له إلا أن يستوفي ألفاظ القرآن، وما كانت القدرة على تذوّق ألفاظ القرآن بهذا المستوى لتواتيه لولا تكوينه الأدبي المتين، وقد حدّد هو منهجه في أن (نختصر ونكمل وأن نوضّح ونجمل ولا نستشهد على اللفظ المبتذل، ولا الدلالة على الحرف المستعمل، ولا نحشو كتابنا بالنحو والحديث

والأسانيد، فإنا إن فعلنا ذلك في نقل الحديث لاحتجنا إلى أن نأتي بتفسير السلف، رحمهم الله، بعينه، ولو أتينا بتلك الألفاظ، كان كتابنا كسائر الكتب)، وينبغي أن نقف عند الجملة الأخيرة لنكتشف أنه كان من تصميم الراغب التفرّد والتميّز حتى لا يكون كتابه كسائر الكتب. وهكذا كان كتاباً فريداً في منهجه.

هذه المناهج الثلاثة يُضاف إليها منهج الزبيدي فتكون أربعة، كانت أمامي وأنا أعد هذا النفيس، وأستخرج مادته من التاج، وبعضاً منها من اللسان، مع رجوع إلى الأصول فيما يحتاج إلى الرجوع إليها، حتى كان من ذلك كلّه هذا العمل الذي أرجو أن يكون قد جمع محاسن كل هذه المناهج النافعة.

بدأت هذا العمل، وفي النية تبويب التاج تبويباً حديثاً، وغايتي الأساسية هي تعميق الصّلة الشخصية بمادّته اللغوية، ولكن ما كدت أقطع شوطاً بسيطاً في هذا النهج، حتى أدركت أنه جهد لا طائل وراءه، وأن الأجدى والأفيد العمل على تخريج المادّة اللغوية، وفصلها عن المواد الموسوعية، وأغلبها في تراجم الأعلام أو التعريف بالمواقع والبلدان، واستخلاص المتن اللغوي من الزوائد والإضافات، وتقديم هذا المتن في ثوب جديد يعتمد التهذيب. ولقد كان التهذيب همّاً شاغلاً لكلّ من ألّف المعاجم، بل إن الأزهري سمى معجمه (التهذيب) والعنوان نفسه واضح في تحديد منهجه. وسمّى الجوهري معجمه (الصحاح) وهو أيضاً واضح في الدلالة على منهجه.

وقد التزمت أنا هذا المنهج، وأحسب أن النتائج التي انتهيت إليها من عملي هذا الكبير، لا تختلف في شيء عن النتائج التي انتهى إليها مؤلّفو المعاجم في مطلع النهضة الحديثة وما تلاها حتى يوم الناس هذا. فإن المتصفّح لهذه الأعمال يكتشف أنها قامت على التبويب والتهذيب والاختصار، ويمكن الرجوع بأصولها كلّها إلى هذه المعاجم القديمة مع محاولة من بعضهم لإبعاد اللغة عن الشواهد القرآنية وأحاديث الرسول الكريم وإقصائها عن كلّ ما يصلها بالكتاب الذي كان العامل الأعظم والأكبر في تحقيق معجزة بقائها واستمرارها. وما أباحه القدماء لأنفسهم في التصرّف بالتوسّع مارسناه نحن بالاختصار والاستخلاص والتخريج، مع التركيز والتكثيف. وقد عاب أصحاب المعاجم

ومنهم الزبيدي على القاموس اختصاره وتكثيفه (حيث أوجز لفظه وأشبع معناه وقصر عبارته وأطال مغزاه)، ووجدوا السبيل لأن يتّخذوا من ذلك قاعدة للتوسع بالإضافة والشرح، مع أننا نكتشف اليوم، أن صاحب القاموس، كان متقدماً على عصره، ومن جاء بعده، وأن المنهج الذي سلكه، إنما هو المنهج الذي تقوم عليه تآليف القواميس الحديثة، أي الإيجاز والتكثيف واللمحة والإشارة، ثم لا ننسى أن هذا القاموس ألّفه، بعد تأليفه لقاموسه الأكبر الذي لم يصل إلينا، فكأنّما أراد أن يخاطب بعمله المزدوج فئتين مختلفتين، ولعلّ هذا الاختصار هو الذي ضمن له الشيوع والذيوع (حيث قربت عليهم مآخذه فتداولوه وتناقلوه) كما يقول صاحب التاج.

وقد قامت عدة محاولات لتهذيب المعاجم ومنها (لسان العرب)، وربما كانت هذه المحاولة الأولى لتهذيب (تاج العروس) ليلائم الحاجات الحديثة، وليكون جسراً واصلاً بين المعاجم القديمة وما يُراد تأليفه من معاجم حديثة، تعتمد عليها. إن الغاية الكبرى التي حكمت هذا العمل هي تخريج المادة اللغوية وفصلها عن المادة الموسوعية، ووضع هذه المادة اللغوية صافية خالصة أمام الدارسين وإعادة ترتيب هذه المادة وفق الترتيب الألفبائي الذي من شأنه أن يسهل أمر الوصول إليها بأيسر الطرق، ويجنّب الناشئة ما عانيناه في مطالع شبابنا من عناء في الوصول إلى مكنونات هذه المعاجم، والاستفادة منها بسبب الترتيبات التي لم نتعوّدها إلا بعد مران طويل.

وبعد، فإنّ هذا العمل هو جسري الأكبر الذي أقمته مع معاجم اللغة العربية، وكثيراً ما أقول في الإلحاح على الأثر الشخصي، في الأعمال الكبيرة، إن المؤلّفين حيث يؤلّفون إنما يؤلّفون في الأصل لأنفسهم أولاً، تقييداً لعلم يريدون حفظه، أو تذكيراً لهم بما يخشون نسيانه، فإذا تيقّنوا من جدوى عملهم، ألقوه إلى الناس حتى يستفيدوا منه، ولذا يمكن القول بأنني صنعت هذا العمل لنفسي، ولمُتعتي الشخصية ولتعميق صِلتي بهذه اللغة العظيمة، ولو لم يكن من هذا العمل إلا أن يشهد لي بأنني قرأت تاج العروس من الغلاف إلى الغلاف، ورجعت إلى مصادره الكبرى ورحلت إليها رحيل أصحابها القدامى من

نَجع إلى نجع ومن رَبع إلى ربع، من أجل تقييد شاردة أو تسجيل فائدة، حتى استوى هذا العمل بهذا الشكل لكفَى بذلك فخراً واعتزازاً وشهادة لي على عمق الصّلة بهذا التراث العظيم سواء تمثّل في مجال اللغة أو الأدب أو في باب من أبواب المعرفة التي حَوتها الموسوعة اللغوية.

وحسبي شرفاً أن أصنّف ضمن أصحاب المختصرات وفيهم الرازي بمختار صحاحه، وابن منظور بمختصراته العديدة، والزبيدي الذي اختصر ولخّص ونقل حتى أقام عمله اللغوي هذا في أربعة عشر عاماً.

وإذا كان صاحب اللسان قد أفاد كثيراً من ابن الأثير فإن صاحب التاج كان يبدي إعجاباً كبيراً بالراغب الأصبهاني وكتابه (المفردات) فكثيراً ما يُورد له تفسيره لبعض الكلمات بتلك الشفافية الأدبية التصوّفية التي عرف بها الراغب، في كتابه هذا الفريد، واهتمامه بكتاب (المفردات) وإعجابه بمنهجه ونقله عنه والسير على دربِه يجعل من التاج مرجعاً هاماً في تفسير ألفاظ القرآن والمصطلح الإسلامي، وأشعُر أنّني قد حافظت على ذلك محافظة صارمة تمكّن الراغبين في فهم المصطلح الإسلامي، من الرجوع إليه بسهولة ويسر، حتى لتكَاد موادّه الداخلة في هذا السياق تصبح تفسيراً لغوياً للقرآن الكريم.

وقد تقيّدت بالأصل فلم أزد عليه شيئاً من المصطلحات الحديثة والكلمات المستجدّة. فلِمن أرادها أن يلتمسها في المعاجم الحديثة وإنّما غايتي أن أجعل المادة اللغوية في هذا القاموس قريبة المَنال، وربّما كان إخراج هذا العمل بهذه الطريقة يبيّن ما أفاد منه المحدثون في تأليف معاجمهم، إذ يُلقي تاج العروس بظلّه على كثير من هذه المعاجم.

ولم أهمل منه إلا ما أهملته الجماعة، وهو المستدرك عليه في التاج، وأغلبه من الكلمات المماتة، وليس هناك من فائدة في هذا الاستدراك سوى التوثيق للكلمات المهجورة أو المماتة. ثم إن الاستدراك يكون عن غفلة من المُسْتَدْرَكِ عليه. وهؤلاء لم يهملوا ما أهملوا عن غفلة، ولكن عن أستاذية خولتهم سلطة التصرف التي يبدو معها الاستدراك نوعاً من المماحكة، والظهور بأستاذية اللاحق على أستاذية السّابق. وفي هذه المعاجم وغيرها من كتب التراث

معرض حافل لهذه النزعات البشرية. فمن كانت له رغبة في هذه المستدركات فليرجع إليها في أصلها القائم الذي لا يلغيه التلخيص أو الاختصار، كما لم تلغ مختارات الصّحاح ومختصراته مرجعية الصّحاح الأصلي. إن التجريد والاختيار والاختصار والتوسيع فنون مارستها المعاجم العربية في مسيرة تطوّرها وتطوّر مناهجها. وقد اعتمد اللاحق على السابق كثيراً حتى غَدَت معها بعض الأعمال، وكأنّها تكرارٌ لما تقدّمها، ولكن الاختيار والاختصار والتجريد من شأنه أن يخلق بالضرورة عملاً مستقلاً عن الأصل بكيانه وخصائصه، كما يستقلّ الابن عن الوالد بمزاياه وخصائصه، وهنا يدخل الطابع الذاتي ليخْلَع خصائصه ويترك بصماته، فمختار (الصّحاح) هو عمل يعتمد الصّحاح، ولكنّه عمل مستقلّ بغاياته ومنهجه، فغاية الصّحاح الاستيفاء وغاية المختار الانتقاء.

إن حفظ اللغة وصونها ودفع الأخطار عنها، هي العوامل التي تحكّمت في تأليف المعاجم، وقد جعل صاحب اللسان، من الأسباب التي حرّكته إلى تأليف معجمه، جهل الناس باللغة العربية وافتخارهم بمعرفة اللغات الأجنبية، ويبدو وبشكل حادّ، أن هذه الأسباب ما تزال قائمة، بل إن الأخطار التي قد تهدّد اللغة العربية قد تزايدت وتعاظمت، لا في الافتخار بمعرفة اللغات الأجنبية، بل في تكريس الدّعوة إلى العامية، وهو ما تشهد به، قنواتهم الفضائية التي أصبحت تشكّل أقوى خطر على اللغة العربية.

وأعترفُ بأنّه على ما في هذا العمل من مشقّة، فقد حقّق لي متعة شخصية، هوّنت عليّ ما لقيت من تعب، في الدخول في مجاهل أدغاله وغاباته، خاصة وقد حاولت أن أعود بخير ما في الغابة المتشابكة من غلال وفواكه وزهور كوّنت هذا البستان الذي اسمه النفيس.

والله نسأل، أن يكون الجزاء المعنوي عنه كفاء الجهد الفردي المبذول في جميع مراحل إنجازه اختياراً واختصاراً وتبييضاً وطبعاً ومراجعة وتصحيحاً حتى استوى على هذا الشّكل، بلا عوْن من أحد، ولا دعم من أية جهة. لا أقولُ ذلك على سبيل الفخر والمباهاة، ولكنّني أقول ذلك تأكيداً لمسؤوليتي الفردية في كل هذه المراحل والخطوات. وقد حاولت الكمال ما استطعت إليه سبيلاً.

هذا عمل ليس من أعمال الكسب، ولكنه من أعمال المجد، مجد اللغة العربية وواجب خدمتها جيلاً بعد جيل، وقليل هم الذين يُقبِلون على أعمال المجد في عصرنا هذا الذي تغلّبت فيه قيمة النفع المادي السريع على كلّ قيمة. ولم تبق إلا فئة قليلة من العبّاد والزهّاد التي تهب العمل كلّه من أجل غاية سامية، تفوق كلّ عائد مادي. وإلاّ فما هو العائد الماديّ الذي يكافىء هذا الجهد الذي لو قامت به مؤسسة رسمية في أي جزء من الوطن العربي لأنفقت على تنفيذه مئات الآلاف من الدنانير وأسّست له العديد من اللجان، وهي تتلقّاه الآن هبة تشرّفها، وترفع قدرَها من مواطن لم يطالبها بشيء سوى أن تتبنّاه في مراحله الأخيرة وأن تستقبله بما يليق به من الحفاوة والإكرام. لما يمثله من إسهام ليبي في خدمة اللغة العربية صانعة القومية العربية وحافظة وحدتها، وهي فوق هذا وذاك لغة القرآن الكريم.

وقل رب زدني علماً.